تجليات التحريم في الفن التشكيلي الجزائري

د.محمد خالدي جامعة: أبي بكر بلقايد تلمسان

Abstract

The establishment of Islamic states in the Arab Maghreb lands, throughout history, starting with the Rustums, the Idrisid, the Abidis, the Almorabits, the Almohads, the Zeitans, the Chafits, the Marinies, ending by the Turkish, the spread of teaching the Islamic religion principles amidst their communities, the adherence of the Sunnis to the provisions of the Hadith and the establishment of these countries on the basis of religious asceticism, lead the Arab Maghreb population in general and the artists in particular stand in a negative position from painting in particular and the plastic arts in general. Their attitude is primarily the result of their faith and spiritual attachment to their religion, especially the Maliki doctrine adopted by the Maghreb societies, was the most doctrine that prohibits portrayal of nature and its embodiment. In the context of his translation of Papadopoulou's book, Ali al-Lawati says that the scholars and jurists of the Malikya have avoided all realistic images or ideas, and thus the Maliki doctrine has been hardened by the position of other sects regarding the issue of prohibition. As well as the issue of the prevention of stereotypical portrayal in Islam, which is an important issue undoubtedly related to the formation of the Islamic aesthetics art, and was seen as a process of repression imposed by the religious authority in the right of creativity.

The reason for the departure of the Arab Maghreb artists from the plastic arts in general, and the art of painting in particular, is religious, not shortage or deficit in the field of skill and artistic talent, because they excelled in other fields where there was no religious prohibition or things like.

However, the Islamic presence on the land of Algeria has helped to form an Islamic art created by the friction of the North Africa people's culture. All over, the Islamic presence on the land of Algeria has helped to form an Islamic plastic art resulting from the friction with the civilization of the natives of North Africa, This art came respectful of the rules of the Islamic religion. Since Islam reached their land, Algerian artists have moved away from the formation of statues that the Islamic religion has forbidden.

تقديم:

ساهم انسان المغرب الأوسط كغيره من انسان المناطق الأخرى في صنع فنون الحضارات الغابرة، والتي تولّدت نتيجة التّأثّر بعدة فنون كفن البحر الأبيض المتوسّط والفن البونيقي والروماني وغيره. ويرى المؤرخون أنه ابتداء من العصر الحجري القديم فإننا نرى أنّ رجال ما قبل التاريخ قد وضعوا الأسس الفنية للمجتمعات الرّيفية بالمغرب الكبير. حيث استطاعت بواسطة الأسلحة والأدوات أن تقضي على المسافة التي تفصلها عن الطريدة أو النبات، وأصبحت من جهة أخرى تسعى من أجل إدخال نظام على الفوضى السائدة بواسطة الطقوس والهياكل المأتميّة والتّزيين البدني والرّسم الجداري والنّحت ولو أدّى بهم ذلك إلى تسجيله في حيّز الطبيعة[1].

انجازات الإنسان المحلي الفنية:

استعمل رجال ما قبل التاريخ مبكّرا الأواني الخشبية والجلدية كالقرب، والتي لم يبق منها الآن شيء، لأنّ مادتها فانية. إلاّ أنّه في أواخر ما قبل التاريخ كان سكان عصر الكبسياني والنيوليتي قد جعلوا من بيضة النعامة المجوّفة والمثقوبة من أحد قطبيها إناءا، ربّما كان سريع الانكسار ولكنّه صالح للاستعمال بدون شكّ. وقد كانوا أحيانا يولون هذه الأواني اهتماما خاصّا. وهذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاهتمام يتجلّى في وجود رسوم هندسية بسيطة حول الثّقب، إلاّ أنّ المرحلة الأكثر تميّزا في حياة شمال إفريقيا هي المرحلة النيوليتية، التي جاءت بالفلاحة وتربية المواشي، كما أدخلت الطّرق الفنية في صناعة الخزف المزخرف. وهكذا انتشرت هذه الصناعة شيئا فشيئا إلى أن وصلت إلى منطقة الهقار، في الألف السابع، ولا زالت باقية إلى اليوم، مشكّلة عنصرا من عناصر الثّقافة الأساسية للمجتمعات القروية في المغرب الكبير. ونرى مثلا أنّ الأوعية في العهد النيوليتي كانت ذات قعر نصف كروي أو مخروطي وذات جوف مزيّن كلّيا أو جزئيا. وفي ذلك العصر كان الاختراع في الزخرفة أكثر بروزا من الأشكال[2].

الشكل رقم: 01

الشكل رقم: 02

كما أنّنا نستطيع أن نشاهد على مساحات الصّخور في جبال الطّاسيلي بوادر فنّ ينمّ عن عبقريّة قبائل تلك المناطق، تتمثّل في الرّسومات المختلفة، وتمثّل الحيوانات والإنسان، عبّر بواسطتها الإنسان البدائيّ على الطبّيعة والمحيط الذي كان يعيش فيه، وتلك الظّروف الصّعبة التي عاشها إبّان تلك الفترة.

وقد شهدت منطقة الطاسيلي ناجير، منذ ألوف السنين نشأة آيات الفن الجداري التي نالت إعجاب كبار المتخصصين بهذا الفن في العالم، مثل الباحث هنري لوط H.Lhote، الذي انبهر من شدّة إعجابه برسومات صخور الطاسيلي إبّان جولته الاستكشافية التي قادته إلى المنطقة خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

إنّ الزّائر للجنوب الجزائري وخاصّة منطقة جانت بأقصى الجنوب الشرقي، وبالضّبط بمنطقة الطّاسيلي، يجد نفسه وسط أكبر وأهمّ متحف على الهواء الطّلق على المستوى العالمي، والذي يعدّ ميراثا إنسانيّا عالميّا ضاربا جذوره في التاريخ. هذا وإذا كانت عين الجاهل لا ترى أو تلاحظ دلائل هذا الوجود، فإنّ من يستطيع قراءة الطبيعة في الجزائر أو في جلّ أرجائها في تلّها وصحرائها، يجد أنّ أكوام الأدوات والعظام والرّماد والفحم والنقوش والرسوم على جوانب الصخور، تثبت أنّ الجزائر كانت حقا أرضا قديمة وأرض حضارة عريقة[3].

إنّ وجود تلك الرّسومات المحفورة على الصّخور، كلوحة "البقرة الباكية" المنقوشة والمحفورة على سطح صخرة وسط الرّمال الذّهبية، والموجودة غير بعيد عن مدينة جانت، قد أبهرت الفنّانين والزّائرين لها، وهذا خير دليل على الذّوق والموهبة الفنّية المنتشرة وسط قبائل تلك المنطقة على وجه الخصوص.

وتولّد عن الاحتكاك بالقبائل والشّعوب المجاورة والحضارات على مرّ الأزمان ابتكارات عديدة في مجال الفنّ، وخاصّة الفنّ التّشكيلي الذي ظهرت إشاراته منذ القدم مع الإنسان البدائي، فطوّع ذلك الإنسان المواد المختلفة، وجعلها في متناوله وقضى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حاجاته المختلفة من الجلد والمعادن وغيرها... وكذلك الفنّ المتمثّل في النّقش والحفر على الصّخور خاصّة، حيث استمرّت تلك التّكوينات ذات الأشكال المجرّدة والهندسيّة في العديد من المناطق إلى الآن. وشكّلت طابعا جماليّا أصيلا وهويّة ثقافيّة خالصة، فكانت إذن تلك الزّخارف المشكّلة من خطوط ومعيّنات وتشهير وتنقيط على الزّرابي والفخّار والحليّ.

الطابع الإسلامي في الثقافة الجزائرية:

بعد أن دانت الجزائر بالإسلام ونطقت بالعربية بفضل الفتوحات، حيث أصبحت جزء من العالم الإسلامي والعربي، فإنّه من الطّبيعي والمنطقي أن تكون ثقافته عربيّة إسلاميه، إذ أن الدّين الإسلامي مصدر إشعاع وتأثير على حياة المجتمع، حيث أثّر في الثّقافة والنّظم القانونيّة والعلاقات الاجتماعية، إذ كان عنصرا أساسيّا من مكوّنات الهويّة والشّخصية الجزائريّة، حيث كانت الحياة الثّقافية امتدادا للحضارة الإسلاميّة العربيّة، فكان التّدريس بالعربيّة وكان للكتاتيب والزّوايا والمساجد دور مهمّ في تعليم أفراد المجتمع من علوم ومعارف وقرآن وفقه، فعملوا على تلقين المجتمع أصول الثّقافة العربيّة والإسلامية. فعلى الرغم من الانتقادات التي وجّهت إلى العثمانيين في تسيير البلاد فإنّ المؤسسات التعليمية في نهاية عهدهم كانت منتشرة عبر التراب الجزائري، وأسّست المساجد وكتاتيب التعليم القرآني والزوايا، في تلمسان وقسنطينة ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة[4]. وكان تسيير المؤسسات التعليمية تحت مسؤولية الدولة العثمانية، والبعض منها كان تابعا لجماعات غير حكومية، قائما على نظام الوقف[5]. وكانت في مدينة الجزائر في سنة 1830، مائة مدرسة لتعليم القراءة والكتابة والحساب. أمّا في البوادي فإنّ الزّوايا هي التي تهتمّ بنشر التّعليم ومبادئ الدّين (زاوية الهامل، والشلاّلة والتّيجانية وسيدي علي)، وكان حوالي أربعين زاويّة في نواحي تلمسان وحدها، ورغم تعدّد المناصب الدّينية، فقد ساد مبدأ التّسامح والأخوّة الدّينية الذي كان يعتبر روح الحياة الثّقافية والدّينية في البلاد.[6]

وبالإضافة إلى كلّ هذا كانت بالجزائر عادات وتقاليد محليّة من موسيقى وفلكلور وصناعات وحرف تقليديّة طبعت الحياة الثّقافية في ذلك الوقت، وأبانت عن جانب ثقافي وفنّي يعكس ذوق المجتمع الفنّي الجمالي.

ومهما يكن من أمر فإنّ الفن التشكيلي في الجزائر بقى أسير هذه النظرة المتحفظة للدين الإسلامي اتجاه التصوير. هذه النظرة قد حددت معالمه وأكسبته خصائص ذاتية. فنجد أن فنانو المجتمعات الإسلامية يبتعدون كثيرا عن التجسيد ويتجهون إلى التجريد، مستغلين العناصر الغير آدمية والحيوانية لابتكار زخارف رائعة وجميلة، مستوحاة من العناصر النباتية والخطية.[7]

الإسلام مصدر استلهام الفنان الجزائري:

فهم الفنان الجزائري المسلم وقوع التحريم على الفن التجسيمي فنحى منحاً تجريدياً، وذلك من خلال الزخارف لتحقيق الانسيابية في الخطوط، والاتزان الهندسي، والتوافق اللوني، وهي المقدمة اللازمة لفن تجريدي أصيل. وقد توقف التعبير الفني في بداية الفتوحات الإسلامية للأسباب التالية:

أولاً: كان التلقي القرآني قوياً حيث بهرهم النور القرآني وأوقفهم عن التعبير مؤقتاً. وهي فترة الدهشة التي تسبق الإنتاج الفني.

ثانياً : كان الرصيد الثقافي رصيداً بربريا، وهذا الرصيد لا يصلح للدين الجديد والحياة الإيمانية الجديدة. فلا بد إذن من وقت لاستجماع رصيد جديد يصلح للحياة الجديدة لبعث أمة جديدة لها رسالة حضارية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثا: أخرج الإسلام الفن من دور العبادة إلى الطبيعة الرحبة والكون الفسيح، وحوله من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنسان. فكان تأثير التحريم قوياً على الفن المستخدم كأداة الوثنية للآلهة المعبودة في تلك الدور التعبدية، فأوقف هذا النوع من الفن الذي يخدم الآلهة الوثنية.

رابعًا: انشغل السكان المحليون بعد اعتناقهم الإسلام بالفتوحات ونشر الدعوة والتصدي للوثنية، وقد بذلوا جهودهم وأخرجوا مكبوتاتهم ووجهوا انفعالاتهم النفسية إلى الدعوة والجهاد والاستشهاد.

خامساً: كان الفن جنيناً في رحم الأمة الإسلامية، فكان لابد من ولادة جديدة لفهم حضاري جديد من خلال التصور الإسلامي للوجود.

تأثر فن التصوير:

نقصد بالتصوير التشكيل والتكوين والتجسيم. وقد تأثر هذا الفن بما جاء به الدين الاسلامي من منع حيث وردت إشارات إلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال الله تعالى:(ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) سورة الأنبياء الآية 52.

وقال تعالى:(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) سورة سبأ الآية13.

وورد في حديث ابن مسعود أن النبي (ص) قال: (إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون) متفق عليه. وهم الذين يصورون أشكال الحيوانات التي تعبد من دون الله[8] كما قال القسطلاني في إرشاد الساري 481/8

وعن أبي سعيد قال:(أخبرنا النبي (ص). أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل أو تصاوير). رواه الترمذي ومالك، وغير ذلك من الأحاديث.

وقد استعرض أحد الباحثين الأحاديث الواردة في التصوير والصور وخلص إلى أن المقصود بالصورة في الأحاديث التمثال. وأن هذا المعنى هو الأكثر وروداً ووضوحاً حيث تم ورودها بمعنى الرقم والنقش.

وقد التزم الفنان المسلم في ميدان الرسم بتعليم الاسلام. والرسم له معنيان: أحدهما رسم الصور ذوات الأرواح، وهذا قد حرمته السنة، فلا يجوز رسم ذوات الأرواح؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح)) :كل مصور في النار. وقوله (صلى الله عليه وسلم): "أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، الذين يضاهئون بخلق الله"، ولقوله (صلى الله عليه وسلم): إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم :أحيوا ما خلقتم.

ولأنه صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله، ولعن المصور، فدل ذلك على تحريم التصوير، وفسر العلماء ذلك بأنه تصوير ذوات الأرواح من الإنسان والحيوان والطيور.

أما رسم ما لا روح فيه – وهو المعنى الثاني – فهذا لا حرج فيه، كرسم الجبل والشجر والطائرة والسيارة وأشباه ذلك، لا حرج فيه عند أهل العلم، ويستثنى من الرسم المحرم ما تدعو الضرورة إليه، كرسم صور المجرمين حتى يعرفوا وحتى يمسكوا، أو الصورة في حفيظة النفوس التي لا بد منها ولا يستطيع الحصول عليها إلا بذلك، وهكذا ما تدعو الضرورة من سوى ذلك، فإذا رأى ولي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأمر أن هذا الشيء مما تدعو الضرورة إلى تصويره؛ لخطورته، ولقصد سلامة المسلمين من شره حتى يعرف، أو لأسباب أخرى فلا بأس، قال الله عز وجل :"وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ". سورة الأنبياء الآية 52.

وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في حكم التصوير، ويمكن أن نجمل الأحكام المتعلقة بالتصوير فيما يلي:

1- يحرّم تصوير التماثيل وخاصة ما كان يعبد من دون الله.

2 – تحرّم التماثيل المقصود بها مضاهاة خلق الله، أو المقصود بها التعظيم كتماثيل الزعماء والحكام.

3- تحرّم تماثيل كل ما فيه روح ويستثنى من ذلك لعب الأطفال.

4- تحرّم الصور غير المجسمة إذا قصد بها التعظيم[9].

توظيف الخط العربي في فن الرسم في الجزائر:

كان لفن الخط العربي الأثر الواضح على الفنّ التّشكيلي وخاصّة فنّ الرّسم في الجزائر، كانت الانطلاقة الفعلية للرسم في هذه المرحلة الجديدة مع بداية فنّ الخطّ العربي، الذي يعتبر أوّل حركة لتكوين العوامل الإسلاميّة التي انبثق منها الفنّ الإسلامي المحض، فكما أن الحرف العربي في المشرق الإسلامي قد عُدّ واعتبر أساس قيام فنّ النّقش، ونظرا لكون الحرف العربي سهل التّشكيل فقد كان طيلة القرون الماضيّة عرضة للتّجديد المستمّر في الشّكل. يقول **الكسندر بابادوبولو**: أنّ اللّولب يشكّل الهيكل الأساسي والأوحد تقريبا للرّسم الإسلامي، وذلك بالنّسبة لصور المخطوطات العربيّة والفارسيّة والفنّ المغولي أو التّركي ورسوم الشّرق الأدنى المتأخّرة.[10]

وباعتبار أنّ هذا الحرف العربي يعدّ عنصرا طيّعا، له قوانين ورمزية خاصّة به، فقد شكّل جوهر الجماليّة الفنيّة للزّخرفة، ومن هذا الأساس كانت انطلاقة فنّ الزّخرفة العربيّة ومختلف اتّجاهاتها التّجديدية.

وظهر بعد ذلك فنّ النّقش المزخرف الإسلامي الذي يُظهر وحدة متكاملة، ويرتبط بفهم الخطّ الذي هو وسيلة للزخرفة.

وانطلاقا من المفهوم الدّيني، فإنّ الكتابة قد تكاملت مع الزّخرفة فتظهر مثلا تلك الكتابة المتداخلة في بعضها، والتي تتّخذ أشكالا متعرّجة ومنحنية لتكون فيما بعد أشكالا جميلة.

فقد كان لفعل التّواصل الحضاري البربري العربي الإسلامي أثرا فعّالا في تثبيت وتأصيل نموذج فنّي تشكيلي بالقطر الجزائري، تجلّى في الزّخارف الجميلة والمنحوتات الجبسيّة، كما يشهد على ذلك تلك الآثار المتواجدة داخل مدننا العريقة: ورقلة، سدراتة، بجاية وكذلك تلمسان وباقي المدن الجزائرية الأخرى التي حطّ بها الفنانون المسلمون، الآتون من الأندلس قبل أو بعد سقوط غرناطة على يد القشتاليّين الإسبان. يقول الدكتور م س ديماند أمين مجموعة الشرق الأدنى بمتحف "الميتروبوليتان" بنيويورك، في معرض حديثه عن تاريخ فن الحفر والنقش على الخشب بشمال إفريقيا: "أنّه لا تزال بشمال إفريقيا عدّة منابر هامة ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة 1082م-474هـ . وتتكوّن زخارفه من حشوات مربعة تزيّنها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخيلية وتزاويق في أسلوب مغربي إسباني، حمله إلى شمال إفريقية الفنانون الأندلسيون"[11].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة:

إنّ قيام دويلات إسلاميّة بالمغرب العربي على مرّ التاريخ ابتداء بالدولة الرّستميّة والإدريسيّة والأغلبية والعبيدية والمرابطية والموحّدية والزيانية والحفصية والمرينية، وصولا إلى العهد التركي، وانتشار تعاليم ومبادئ الدّين الإسلامي وسط مجتمعاتهم وتمسّك أهل السّنة بأحكام الحديث الشّريف، وقيام هذه الدّول على أسس دينيّة زهدية، جعل أهل المغرب العربي عامّة والفنّانين خاصّة يقفون موقفا سلبيّا من التّصوير بصفة خاصّة والفنون التّشكيلية بصفة عامّة، وموقفهم هذا ناتج بالدّرجة الأولى من إيمانهم وتعلّقهم روحيّا بدينهم، وخاصّة أنّ المذهب المالكي الذي تبنّته مجتمعات المغرب العربي كان أشدّ المذاهب وأحرسها تحريما لتصوير الطّبيعة وتجسيدها. يقول الدّكتور **علي اللّواتي** في سياق ترجمته لكتاب بابادوبولو، بأنّ علماء وفقهاء المالكيّة نهوا عن كلّ صور واقعيّة كانت أو أفكارا، وبذلك عُدّ المذهب المالكي أكثر تشدّدا من موقف المذاهب الأخرى فيما يخصّ قضيّة التّحريم.[12] وكذلك بالنّسبة لمسألة منع التّصوير التّشبيهي في الإسلام، وهي مسألة هامّة لها علاقة بلا شكّ في تكوين جماليّة الفنّ الإسلامي، وكان يُنظر إليها على أنّها عمليّة قمع فرضتها السّلطة الدّينية في حقّ الإبداع.[13]

إذن، فإنّ سبب ابتعاد الفنّانين المغاربة عن الفنون التّشكيلية عامّة، وفنّ التّصوير بصفة خاصّة مردّه ديني، وليس نقصا أو عجزا في ميدان ومجال البراعة والموهبة الفنّية، لأنّهم برعوا في ميادين أخرى لم يكن فيها تحريم ديني أو ما شابه ذلك.

وعلى كلّ، فإن الوجود الإسلامي على أرض الجزائر قد ساعد على تشكيل فن تشكيلي إسلامي نتج عن احتكاك حضارة العرب المسلمين الفاتحين مع حضارة سكان شمال إفريقيا، فجاء هذا الفن محترما لقواعد الدين الإسلامي وابتعد الفنانون التشكيليون الجزائريون منذ وصول الإسلام أرضهم عن تشكيل التماثيل التي حرمها الدين الإسلامي.

الهوامش:

1- متاحف الجزائر . سلسلة الفن والثقافة . الجزء الخامس . ص 10.

2- المرجع السابق . ص 14.

3- المرجع نفسه. ص11.

4- أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة .1830- 1962. عمار هلال، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1995م،ص102.

5- الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار. عبد المجيد مزيان، مجلة الثقافة ، عدد 90. وزارة السياحة و الثقافة ، الجزائر،1985م،ص38.

6- مقالة للدكتورة أنيسة بركات . باحثة بالمركز الوطني للدراسات التاريخية . مجلة الثقافة [وزارة السياحة بالجزائر . عدد 82 . أغسطس 1984 م . ص ، ص 197، 198

7- الحركة التشكيلية المعاصرة في الوطن العربي، تأليف محمد حسين جودي، الطبعة الأولى، 1998م، دار المسيرة للنشر والطباعة، عمان. ص13.

8- القسطلاني في إرشاد الساري 481/8

9- القرضاوي. الإسلام والفن. ص 111-113

10- الكسندر بابادوبولو، المرجع السابق . ص 72

11- الفنون الإسلامية. ص 129. ط مصر 1954م.

12- الكسندر بابادوبولو، جمالية الفن الاسلامي، ترجمة،د، علي اللواتي. تونس 1979، ص 16

13- عفيف بهنسي, الفن الحديث في البلاد العربية, دار الجنوب للنشر. تونس 1980 , ص 15 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

www.manaraa.com